أدب الفقهاء

- ١٣ -

فنون شتى

ويشتمل أدب الفقهاء على أغراض أخرى وفنون شتى من القول ، غير الموضوعات الشعرية الأساسية التي سبق الكلام عليها ، وبعضها مما يتضمن معاني وصوراً قلما نعثر عليها في شعر الأدباء من غير أصحابنا ، وبعضها الآخر مما يحتوى على صنعة أدبية فريدة ، وطراز بديع من الصياغة الشعرية لم تتحدث عنه كتب هذا الفن إلا قليلا . ونرى من تمام العناية بهذا الأدب أن نلم من ذلك بنماذج تمثل ما للفقهاء من اهتمامات أدبية تختلف مضموناً وشكلاً عن القواعد والمجالات المعروفة في عالم الأدب ، وأقل ما يستنتج منها هذا الأفق الواسع للرؤية الشعرية عند الفقهاء ، الذي ينفي عنهم كل ما قيل في ضعف إنتاجهم الأدبي ، والشعر منه بخاصة .

وأول ما نبدأ به قولهم في نقد الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، والتنديد بالحكام الجائرين ، وصنائعهم من أعداء الملة والدين ، وفي هذا الباب يجب أن نتذكر ما لشعراء الخوارج ، وأكثرهم من الأئمة الأعلام ، من أشعار تتمثل فيها روح الثورة على الظلم والاستبداد ، والحكم المطلق ، والحياة العابثة التي كان المتسلطون يُشيعونها في الناس ، ولكنا لا نورد شيئاً من هذه الأشعار لاشتهارها أولاً ، ولأنها ثانياً تعبر عن نزعة سياسية خاصة لسنا بصدد التعرض لها في هذا البحث الذي إنما يُعنَى بالناحية الأدبية من أعمال الفقهاء ورجال العلم .. على أن أشعار الخوارج هي باتفاق نقدَة الأدب في الذروة من البلاغة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحسن الأداء ، فما كان منها لفقهائهم فهو حجة لأدبهم وأدب الفقهاء بعامة . ونشير إلى نماذج متداولة من أقوال فقهائنا المعروفين في هذه المقاصد ، وهي التي تعتد بقوة الكلمة وحدها ، ولا تعتبر قوةً غيرَها وسيلةً إلى الإصلاح ، على طريقة الرعاة والمرشدين ، والأدباء الملتزمين فمن ذلك ما اشتهر من قول أحد متقدمي أهل العلم :

هـذا الزمان الذي كنا نحاذره ... في قول كعب وفي قول ابن مسعود

إن دام هذا ولم يحدُثْ له غِيَرٌ ... لم يُبكَ ميتٌ ولم يُفرَحْ بمولود

وهذان بيتان هما مما جـــرى على كل لسان ، وأصبحا مثلاً مضروباً في فساد الزمان وأهله ، وفشو المنكر ، وانحلال المجتمع ، حتى انه قلما يتحدث متحدث أو يكتب كاتب في موضوع التربية الدينية والخلقية ولا ينشدهما ويتمثل بهما وهما على ما نرى من متانة الحوْك وشدة التأثير بحيث ينفذان إلى أعمـــاق النفس ويغمُران المشاعر بفيض من الأسى والحسرة ، وذلك غاية ما يُتوخى من أية تجربة شعرية ناجحة . وكعب المذكور فيها هو كعب الأحبار تابعي مشهور ، وابن مسعود هو الصحابي الجليل عبد الله الهُذَلي ، وتُروى عنهما أقوال في فساد الزمان وتغيير المنكر .

ومنه قول أبي الفرج بن هندو في ملك ليس له من الملك إلا الاسم :

لنا ملك ما فيه للملك آية ... سوى أنه يوم السلام متوَّج

أُقيم لإصلاح الورى وهو فاسد ... متى يستقيم الظل والعود أعوج

ولا نجـــد لشاعر من الشعراء مثل هذين البيتين في تصوير ما آل إليه الأمر في بعض العصور من تنصيب إحدى الدُّمى على العرش ، وإطلاق اسم الملك عليها ، واعتماد هذا الملك بالتحية وسائر مظاهر الملك ، وادعاء أنه سيصلح البلاد والعباد ، ومع أنه في نفسه فاسد ، فكيف يأتي الصلاح من الفساد ، والظل إنما يمثل الشاخص ؟ فاذا كان هـذا مائلاً فان ظله لا يكون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلا مثله . والتعبير بالاستقامة والاعوجاج في الشعر أبلغ مما فسرنا به مثلَه المضروب ، وذلك مما زاده بلاغةً وقوة حجة .

إن مثل هذا الملك كثيراً ما لهج الشعراء بمدحه ونوهوا بأياديه ، ومن هنا يُعلَم صدق التجربة الشعرية عند أصحابنا العلماء ، فهم ينظرون للصالح العام . ولا يُغويهم عطاء الملوك فيبتذلوا الكلمة ويتآمروا مع المتآمرين .

ولأبي بكر الطرطوشي يخاطب الملك الأفضل شاهنشاه :

يا أيها المَلِكُ الذي جوده يطلبـــه القاصد والراغب
إن الذي شَرُفتَ من أجله يزعُم هـــذا أنه كاذب

وقصـــة البيتين كما حكاها القرافي[1] أن الأفضل غضب على الطرطوشي غضباً شديداً بتحريض وزير له ذمّي فأمر باحضاره عازماً على عقوبته ، فلما دخل عليه ورأى الوزير المذكور بجنبه خاطبه بذينك البيتين ، ففهم الأفضل دسيسة الوزير وأقامه من مكانه وأجلس فيه الشيخ وأكرمه .. والوزراء والمستشارون من هذا القبيل بحكم الفَتْية والخِبْرة ، كم جرّوا على البلاد من محن ، وكم أثاروا من فتن ، ولم يوجد من ينبه على خطرهم إلا فقيه شاعر هو الطرطوشي .

ولأبي عبد الله بن جُزَيّ في طبيب يهودي :

ورب يهودي أتى متطبباً ليأخذ ثاراتِ اليهود من الناس
إذا جسّ نبض المرء أودى بنفسه سريعاً ، ألم تسمع بفتكة (جسّاس)

وهذه صورة أخرى تجسم مكر اليهود الذين يتخذون العلم وسيلة لاستغلال ضعف الإنسان والتآمر عليه ، وهي صورة طبـــق الأصل مما توصي به

(١) أورد الطرطوشي الحكاية في كتابه سراج الملوك باختلاف يسير ، ناسباً لها إلى رجل ذي عقل وأدب فلعله كنى بذلك عن نفسه ، وهي في ابن خلكان أيضاً منسوبة إليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بروتوكولاتُ صهيون ، اليهودَ ، أبرزَها العالم ابنُ جُزَيّ قبل نشر هذه البروتوكولات بقرون ، ودل بذلك على بُعد نظرٍ وشدة انتباهٍ إنما يوجدان عند أهل العلم ، ثم سجّلها ظاهرةً عُنصريةً بَغيضةً في بيتين من الشعر على جانب كبير من الفصاحة والبيان .

وشعرهم في فساد المجتمع وانتقاد الحكام كثير ، وقد ذكرنا منه تفاريق فيما مضى من التراجم كترجمة عبد الله بن المبارك وغيره فلنكتف منه بهذا القدر .

ومن الموضوعات العزيزة التي نلتقي بها كثيراً في شعر الفقهاء ، محاربةُ الشعوذة والتدجيل وتنمية الوعي والشعور بقيمة العلم والعقل ، مما أثّر دائماً في رفع المستوى الفكري والحضاري لعامة الشعب ولم يتركهم فريسة الأوهام والخرافات .

فمن ذلك قول محمود الوراق في المُرائين من الزهاد :

أظهروا للناس نُسكاً ... وعلى الدينار داروا
وله صلّوْا وصاموا ... وله حجّوا وزاروا
لو رأوه في الثريا ... ولهم ريش لطاروا

وقول آخر في العلماء المزيّفين :

قل للذين تكلّفوا زيَّ التقى ... وتخيّروا للدَّرْس ألفَ مجلد
لا تحسبوا كَحَل العيون بحيلة ... إن المَها لم تكتحل بالإثمد

ومنه لأُميّة بن عبد العزيز بن أبي الصلت العالم الطبيب الأديب في بطلان التنجيم واعتماد الطالع :

لا ترجُ في أمرك سعْد المُشتري ... ولا تخف في فوته نَحْسَ زُحَل
وارجُ وخف ربها فهْو الذي ... ما شاء من خير ومن شر فَعَل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولغيره في المعنى :

من كان يخشى زُحَلاً أو كان يرجو المشتري
فانني منـــه ، ولو كان أبي الأدنَى ، بَري

ولآخر مصححاً العقيدة في ذلك :

خَبِّرنْ عنيَ المنجم أني كافر بالذي قضته الكواكب
عالم أنّ ما يكون وما كا ن قضاء من المهيمن واجب

ولآخر مبيناً الغاية التي تُتوخى من الرصد :

ليس للنجم إلى ضـــــرّ ولا نفع سبيل
إنما النجم على الأو قات والسَّمْتِ دليل

ولأبي بكر الزبيدي اللغوي وارتكب فيه المذهب الكلامي من البديع :

يقول المنجم لي لا تسِرْ فإنك إن سرت لُقّيت شرا
فإن كان يعلم أني أسير فقد جاء بالنهي ظلماً وجوْرا
وإن كان يجهل أني أسير فجهلُ العواقب أولى وأحرى

ولآخر يخاطب أحد الملوك وقد نهاه مُنَجِّمُه عن الغزو :

دع النجوم لطَرْقِيّ يعيش بها وقُم لوقتك وانهض أيها الملك
ان النبيَّ وأصحاب النبي نَهَوْا عن النجوم وقدأبصرتَ ماملكوا

ومنه للشيخ أحمد زروق في التنبيه على نوع آخر من الشعوذة وهو الاشتغال بالكيمياء واستخراج الكنوز :

كافُ الكنوز وكافُ الكيمياء معا لا يُوجَدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحـــدث أقوام بأمرهما وما أظنهما كانا ولا وقعـــا

وغني عن البيان ما في هـذه الأشعار من تنوير للعقول وتمحيص للحقائق ، فاذا كان بعض الشعر ، وخاصةً هـذا الذي يستعين بالمثولوجيات وأساطير الوثنيين ، قد يزيد الناس عمى ويعود بهم في حافرة الجاهلية الأولى ، فان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الأشعار تنبه الغافلين ولا تدع الجهل يستبد بأوساط الناس ، لأنها دعوة إلى التحرر من عبودية الدجالين والمشعوذين ، ونبذ الأفكار الرجعية والترهات الباطلة . وهذا المحتوى الإنساني الرفيع إلى النظم البياني البديع ، هو الذي جعلنا نسميها أشعاراً ونعدها في خاص الخاص من أدب الفقهاء . وكان بودنا أن نقف عند كل قطعة منها ونبرز ما فيها من صدق التجربة وجمال الأداء ، ولكنا رأينا ذلك يطول فضربنا عنه صفحاً مكتفين بالإشارة إلى مقارنة البيتين اللذين يخاطب بها صاحبُها الملكَ المتوقف عن الغزو لنهي منجمه له عنه ، بالأبيات الأولى من بائية أبي تمام التي يمدح بها المعتصم لما فتح عمورية :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحدّ بَيْن الجد واللعب

بيْض الصفائح لاسُود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب ... الخ

فهذه المقارنة تظهر أن نفَس الشاعر وإن كان أطول وأقوى ، إن بيتي صاحبنا الفقيه يكتسيان حلة من الوضوح وقوة الحجة ليست لأبيات أبي تمام ، ومع ذلك فهي أسْيَر وأشهر لمكانة الشاعر ، ومكانة الممدوح ، ومكانة المدينة المفتوحة وما كان لفتحها من صدى بعيد في البلاد حتى لقد سماه أبو تمام فتح الفتوح . على أن من تتمة حكاية البيتين المذكورين فيما يُروَى أن الملك المخاطَب بها نهض إلى حرب عدو ، فانتصر عليه وظفر به ظفراً مبيناً ، تماماً كما وقع في عَمّورية .

ومن طريف أدب الفقهاء ما يقولونه في وصف الحياة العلمية والانقطاع إلى الدرس والتحصيل واغتباطهم بذلك واعتباره أعظم متعة روحية تقر بها أعينهم وتغنيهم عن كل متعة مادية يشتغل بها غيرهم ، حتى أن بعضهم جعل اللذة الحقيقية هي لذة المعرفة كما قال ابن السبكي في جمع الجوامع : (واللذة حصرها الإمام (١) والشيخ الإمام (٢) في المعارف) وهكذا نجد أحدهم وهو

(١) إمام الحرمين أبو المعالي الجويني .

(٢) والد ابن السبكي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبو سليمان الخطابي في برجه العاجي يقول مستهيناً بالدنيا وما فيها :

أنِسْتُ بوحدتي ولزمت بيتي فدام الأنس لي ونما السرور
وأدّبني الزمان فما أبالي هُجِرتُ فلا أُزار ولا أزور
ولست بسائل ما عشت يوماً أسار الجند أم ركب الأمير

ويجيب أحمد بن فارس اللغوي من سأله كيف أنت ؟ مظهراً غاية الاعتزاز بالعلم :

وقالوا كيف أنت فقلت خيراً تُقضّى حاجة وتفوت حاجُ
نديمي هرّتي وأنيس نفسي دفاتيري ومعشوقي السراج

ويعتبر القاضي أبو الحسن الجرجاني لذة العيش هي القراءة قائلاً :

ما تطعّمتُ لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندي من العلـــم فما أبتغي سواه أنيسا

أما محمد بن هرون الدمشقي فان قرة عينه أن تتوفر له أدوات الكتابة الكافية كما يقول :

لَمِحبرةٌ تجالسني نهاري أحب إلى من أنس الصديق
ورَزْمةُ كاغَد في البيت عندي أحب إلى من عِدل الدقيق

ويقول عبد السلام جشّوس في فضل أهل العلم :

إذا ما اعتز ذو جهل بمال وعُظّم في نفوس الجاهلينا
فأهل العلم أعلى الناس قدراً وأعظم عند رب العالمينا

ويقول غيره في رضى العلماء بقسمتهم :

رضينا بالعلوم تكون فينا مخلّدةً وللجهال مال
فإن المال يفنى عن قريب وإن العلم باق لا يزال

ويحسم آخرُ الخلافَ في المفاضلة بين أهل العلم وغيرهم فيقول :

ما الناس إلا العالمون حقيقةً وسواهم متطفل في الناس

ومما قاله الجاحظ في لقاء أهل العلم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يطيب العيش إن تلقى لبيباً غـذاه العلمُ والرأي المصيب
فيكشف عنك حيرة كل جهل وفضل العـــلم يعرفه الأريب
سقام الحرص ليس له دواء وداء الجهـــل ليس له طبيب

وللقاضي عياض في تقريظ أهل العلم وبركة اجتماعهم :

ولله قوم كلما جئتُ زائراً وجدتُ قلوباً كلها مُلئت حلما
إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة ويزداد بعض القوم من بعضهم علما

وذيّله أبو الحسن الرُّعَيْني فقال :

أولئك مثلُ الطيب كلٌّ له شذى ومجموعُه أذكى أريجاً إذا شُمَّا

وزاد عليه أبو بكر بن عتيق اللاردي :

تَعاطَوْا كؤوس العلم في روضة التقى فكلهم من ذلك الريِّ لا يظما

هذا جو من الحياة السعيدة المليئة بالغبطة والسرور ورضا النفس وطمأنينة القلب ، يعيش فيه الفقهاء والعلماء معتزين بما أوتوه من شرف الحكمة وما خُصوا به من مزية المعرفة ، فهم في عالم طُوَباوي لا يرضون به بديلا ، ومهما تظاهر أهل الجاه والمال بمظاهر العظمة والعيشة الرخية ، فان ذلك لا يكبر في أعينهم ولا يستهويهم ، لأنهم يرون أن ما هم فيه من متعة روحية هو العيشة الراضية والحياة الكريمة التي لا معنى للوجود بدونها . ولقد قال بعضهم في هذا الصدد : لو يعلم الملوك ما نحن فيه من كرم العيش لَجالَدُونا عليه بالسيوف . والأشعار التي أوردناها ، وهي قُلٌّ من كُثْر ، تعبر عن هذا المعنى أصدق تعبير ، فلذلك قلنا في هذا الموضوع أنه من طريف أدب الفقهاء .

ومن لطائف أدبهم أوصاف وصور يبرزون فيها المعقول بهيئة المحسوس ويُبسّطون فيها المُرَكَّب حتى يُزايلَه الغموض ، وذلك نتيجة لتعودهم على الدرس وتوضيح المسائل ، فمما نذكـــره في هذا الباب قول ابن المُعافى مُجسّماً نتيجة العجز والتواني :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ألم تر أن العجز زوّج بنتَه ... من ابن التواني ثم ساق لها مَهْرا
فراشا وطيئا ثم قال لها اتّكي ... قصارا كما لا شك أن تلدا فقرا

وقول آخر مفضلاً الحلم على العقل بحجة كلامية .

حلمُ الحليم وعقلُ العاقل اختلفا ... مَن الذي منهما قد أحرز الشرفا
فالحلمُ قال أنا أحرزتُ غايتَه ... والعقل قال أنا بِي اللهُ قَدْ عُرِفا
فأفصح الحلم إفصاحاً وقال له ... بأيّنا اللهُ في قرآنه انصفا
فبانَ للعقل أن الحلم سيدُه ... فقبّل العقلُ رأسَ الحلم وانصرفا

وقول آخر يصف بليداً :

لو قيل كم خمس وخمس لارتأى ... يوماً وليلته يعُدّ ويحسُب
ويقول معضلة عظيم أمرها ... ولئن فهمت فانّ فهمي أعجب
حتى إذا حَصِرت أناملُ كفه ... عدّاً وكادت عينه تتصوّب
أربى على نشْز وقال ألا اسْمَعُوا ... قد كدتُ من فرحٍ أُجَنُّ وأطرب
خمس وخمس ستة أو سبعة ... قولان قالها الخليل وثعلب

وقول آخر في مُناظِر مُراوِغ :

مالي إذا ألزمتُه حجةً ... قابلني بالضحْك والقهقهة
إن كان ضحْكُ المرء من فقهه ... فالذيب في الصحراء ما أفقهه

وقول أبي حيان في مثله :

وإذا جلستَ إلى الرجال وأشرقت ... في جو باطنك العلوم الشُرّد
فاحذر مناظرة الحسود فإنما ... تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد

ولمنصور الفقيه في ذم الحسد بطريقة الجدل :

ألا قل لمن ظلّ لي حاسداً ... أتدري على من أسأتَ الأدب
أسأتَ على الله في حكمه ... لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولغيره في تمثيل الرزق :

مثَـــلُ الرزق الذي تطلبه مثَلُ الظل الذي يمشي معك
أنت لا تـدركه مجتهـــداً وإذا ولَّيْتَ عنـــه تبعك

ولآخر ملمحاً لجنس الحقيقة الانسانية في تبرير تكافؤ الأفراد وإن اختلفت حيثياتهم .

إذا شُوركتَ في أمرٍ بدُونٍ فلا يك منك في هذا نفور
ففي الحيوان يجتمع اضطراراً أرسطاليسُ والكلب العقور

ولآخر فيما يخالف ذلك :

وللزُّنبـــور والبازي جميعاً لدى الطيران أجنحةٌ وخَفْق
ولكـــن بين ما يصطاد بازٍ وما يصطاده الزنبورُ فرْق

وشعرهم من هذا القبيل كثير فلا نطيل به ، لا سيما ونحن نكتب ، في الغالب من حفظنا ولا نستحضر قائله فلا نحب أن نتورط فيما لا يكون من شعرهم ، وإنما نثبت ما تحققنا منه وشككنا في صاحبه ، أو ما دل بصياغته على أنه من بضاعتهم ، وفوق جهدك لا تلام .

وبعد هذه الأمثلة من المعاني والصور الفريدة التي عُني بها أدب الفقهاء إلى جانب الموضوعات الأدبية الرئيسية ، نورد نماذج من كلامهم الذي اعتمدوا فيه صناعةَ البديع والمحسنات اللفظية لنرى إبداعَهم في هذا الفن أيضاً ، بل تصرفهم فيه بما يدل على أن الرؤية الشعرية عندهم أوسع من أن تحدها الأشكال والعبارات ، وبما أن هذا الباب واسع فسنقتصر منه على نوع واحد هو التضمين .

فالتضمين ، وهو اقتباس بيت أو شطر من كلام شاعر سابق مع حسن تأتٍّ يجعله ينسجم وكلامَ المقتبِس حتى يبدوَ كأنه جزءٌ منه ، هو من محسنات البديع ، وقد كثر وقوعه في كلام المتأخرين وهم يتفاوتون في إحكام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صنعته بحسب القوة والضعف في صياغة الكلام وعدم ظهور التعمل فيه ، ومن أرقاه ما وقع لابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد من تضمين شواهد العروض في جميع بحور الشعر الخمسة عشر فلْيُنظَر فيه .

أما أصحابنا الفقهاء فمن قول بعضهم فيه مَضمِّناً شطر بيت من ألفية ابن مالك :

العلمـــاء كلُّهم مَن سادا أو لمْ يسُدْ ، لم يَبْلُغِ المرادا

فرزقُهم مُرخَّم منـــادَى (كياسمُعا فيمن دعا سُعادا)

والشطر المضمَّن هو من قول الألفية في باب الترخيم :

ترخيماً احذِفْ آخر المنادى كياسما فيمـــن دعا سعادا

وقد تأتَّى له هذا الفقيه الأديب أحسن التأتي وأدخله في كلامه بصورة لا يهتدي إلى أنه مضمَّن ، من لم يكن يعرف الألفية وأنها هي التي ضربتْه مثلاً للترخيم ، وهذا بقطع النظر عن جمال هذا الكلام وما فيه من اقتباس لقاعدة الترخيم في علم النحو حتى حَسُن تضمين الشطر المذكور وضرْبُه مثلاً لنقصان رزق العلماء وقلة حظهم على حسب ما يقال .

وتضمين أشطار الألفية مما أولع به الطلبة والمشايخ حتى انهم استعملوه في النسيب والمدح وغيرهما من الأغراض الشعرية ، ومما نذكره من ذلك قول بعضهم :

إذا أتى الحبيب للباب ودَقّ (افتح وقَلَّ مَن بكسره نطق)

وإن أتى الرقيب (والملحق به بعكس ذاك استعملوه فانتبه)

وفي نفح الطيب رجزية لمحمد بن يوسف التاملي نصف أبياتها أشطار من الألفية ، وهي في مدح صاحبِ النفح ، فمن قوله فيها :

نشير بالتضمـــين للنحرير المقَّرِيِّ الفاضلِ الشهـــير

ذاك الإمام ذو العلاء والهمم (كعلَم الأشخاص لفظاً وهوعم)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلن ترى في علمه مثيـــلا (مستوجباً ثنائي الجميـــلا)

ومدحـــه إياىَ لازم أتى (في النظم والنثر الصحيح مثبتا)

وهذان المثالان إنما أتينا بهما على سبيل الإحماض للمناسبة، وإلا فهما لا يرتقيان إلى درجة المثال الأول الذي أحكم معنى وأسلوباً.

ومن أبدع ما وقع للمتأخرين في هذا الباب قول الشيخ يوسف النبهاني في آخر لاميته التي عارض بها قصيدة كعب بن زهير الشهيرة في مدح النبي (ﷺ) وهو هذا البيت:

إن كان متبولَ قلب حين أنشدكم (بانت سعاد، فقلبي اليوم متبول)

ومعلوم أن هذا الشطر المضمن هو صدر مطلع القصيدة المعارَضة، ونصه بصدره وعجزه.

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبول متيَّمٌ إثرَها لم يُفْدَ مكبول

فالنبهاني لما ضمَّن صدر هذا البيت، وهو يخاطب الممدوح عليه السلام، جعل منه جواباً لصدره هو، فقلب معنى الفاء في صدر كعب من العطف إلى جواب الشرط، وأوهم أن المضمن إنما هو قول كعب (بانت سعاد) أي جزء الصدر، وساعده على ذلك أن هذه القصيدة اشتهرت باسم بانت سعاد أي بهذه الجملة كما قال أبو اسحق الغزي فيها:

محت بانت سعادُ ذنوبَ كعبٍ وأعلتْ كعبَه في كل ناد

وما احتاج النبي إلى قصيدٍ مُشبَّبةٍ ببَيْن من سُعـاد

ولكن سنَّ إسداء الأيادي فكان إلى المكارم خير هاد

وعلى كل حال فقد بقي جزء الصدر الآخير وهو قوله فقلبي اليوم متبول كأنه خارج من التضمين لأنه جواب الشرط في صدر النبهاني، والحال أنه مضمن كالجزء الأول، وذلك منتهى البراعة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والغاية في هذا الباب قصيدة أبي بكر بن جُزَي التي ضمَّنها أعجاز قصيدة امرئ القيس ونَقَلها من معانيها الهزلية إلى معان جدّية من الوعظ والمديح النبوي وذلك حين يقول :

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي)
أما واعظي شيب سما فوق لمتي (سموّ حباب الماء حالاً على حال)
أنار به ليـــل الشباب كأنه (مصابيح رهبان تشب لقفال)
نهاني عن غيّي وقال منبهـــاً (ألست ترى السمار والناس أحوالي)
يقولون غيّرْه لتنعم برهةً (وهل ينعمن من كان في العصر الخالي)
أغالطُ دهري وهو يعلم أنني (كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي)
ومؤنسُ نار الشيب يقبُح لهوُه (بآنسة كأنها خط تمثـــال)
أشيخاً وتأتي فعل من كان عمره (ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال)
وتشغفك الدنيا وما ان شغفتها (كما شغف المهنوءة الرجل الطالي)
ألا إنها الدنيا إذا ما اعتبرتها (ديار لسلمى عافيات بذي خال)
فأين الذين استأثروا قبلنا بها (لَنامُوا فما إن من حديث ولا صال)
ذهلت بها غياً فكيف الخلاص من (لعوب تنسيني إذا قمت سربالي)
وقد علمت مني مواعد توبتي (بأن الفتى يهذي وليس بفعّال)
ومُذْ وثقت نفسي بحب محمدٍ (هصرت بغصن ذي ثمار يخ ميّال)

ومن هنا تخلص للمديح وسار فيه على هذا المنهاج متانة أسلوب وحسن صياغة ، ولما أنشد المقري هذه القصيدة في نفح الطيب عقب عليها بقوله : « ولا خفاء ببراعة هذا النظم وإحكام هذا النسج وشدة هذه العارضة » وهذا ما يهمنا أن يعرفه كل من يزري بأدب الفقهاء ، وما نريد أن يتحقق منه مَن كان في شكٍ من أمر هذا الأدب ، حتى يرد له اعتباره ويقدر ، حقَّ قدره .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net